فقه عمر

للأستاذ محمود شلتوت

[عمر بن الخطاب هو أول من كتب التاريخ بالهجرة ، فأحيا بذلك مجدها ، وخلد على الزمان ذكرها ، فحق على الذين يحتفلون بهذا العيد أن يذكروا عمر !]

للرسالة المحمدية جانبان : جانب التلقي عن الله رب العالمين ، وهو خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيه أحد من أمته ، وجانب الفهم والبيان ، والدعوة والإرشاد ، والعمل على توسيع نطاق الإسلام ومد رواقه ، وتنظيم الشئون بأحكامها ، وإلى هذا الجانب ترجع عزة الإسلام وبقاؤه على الدهر فتياً لا تزعزعه العواصف ولا تنال منه الأحداث . ويشارك الرسول من أمته فى هذا الجانب من آتاه الله العلم والحكمة ، وقذف فى قلبه النور والهداية ، وكشف له عن سر تشريعه ، وبصره بمواقع الأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، ووهبه غيرة تحمله على الجهاد فى ذلك كله ، وعلى الصدق والإخلاص فى هذا الجهاد !

وإذا كانت عزة الإسلام ترجع إلى الجانب الثانى ، وإلى قيمة ما يتصل به من جهود موفقة مخلصة صادرة عن الإيمان واليقين ، فإن من يقرأ سيرة عمر ، ويقف على جهاد عمر ، ويعرف مواقفه المجيدة أثناء خلافته وقبلها ، وأفكاره السديدة فى حياة الرسول وبعدها ، يدرك بوضوح : لماذا كان عمر على رأس الذين أعز الله بهم شريعة الإسلام ، وركز أصوله ، وأرسى قواعده ، كما كان على رأس الذين أعلى بهم كلمته ، وأعز سلطانه ، ووسع ملكه ، ويدرك سر هذه الدعوة النبوية التى توجه بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه حين أنكرته الناس ، وتألبوا عليه ، وتحالفوا على الكيد له ولرسالته : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك » وقد ضمن الله لنبيه إعزاز دينه ، ونصرة شريعته ، فأجاب دعوته وهدى أحب الرجلين إليه ، فكان إسلام عمر تنفيذاً للارادة الإلهية ، وتحقيقاً للدعوة النبوية ، وكان إعزازاً لدين الله برجل العزة والسلطان ، ونصراً لشريعة الله برجل الفهم والبيان !

* * *

لعمر رضى الله عنه نواح كثيرة : فهو رجل حرب وجلاد ، ورجل حكم وسلطان ، ورجل تقى وإيمان ، ورجل عدل ونصفة ، ورجل إشراق ونور ، ورجل فقه وقانون ، ولسنا بمستطيعين فى مثل هذا المقال أن نلم بشواهد تلك النواحى من عظمة عمر ، فحسبنا أن نلم ببعض تلك الشواهد فى ناحيته الفقهية التى هى أبرز نواحيه ، وأخص ميزاته ، فقد كان عمر فى هذه الناحية نسيج وحده : شهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفها فيه أصحابه رضى الله عنهم :

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وقال : « بينا أنا نائم أتيت بقدح من لبن حتى إنى لأرى الرى يخرج من أظفارى ، ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب » قيل : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم !

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله » « ولو أن علم عمر وضع فى كفة ميزان ، ووضع علم أحياء الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم . ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ! »

وقد سئلت عنه عائشة فقالت : « كان والله أحوذياً نسيج وحده »

* * *

لم يكن فقه عمر من هذا النوع الذى أودعه الناس بطون الكتب . لم يكن من هذا النوع الذى تجلت فيه روح العصبية الحادة ، ولونه الاتجاهات الطائفية ، والنزعات المذهبية ، لم يكن

من هذا النوع الذى جاء الحياة الواقعية فى كثير من صوره ومسائله ، ولا من النوع الغامض الذى التوت مسالكه ، وتعقدت أساليبه ، فصار بعيد المنال على من يريده أو يلتمس الانتفاع به من غير أهله . لم يكن من هذه الأنواع التى زعم الناس أنها فقه ، بل التى اغتصبوا لها كلمة الفقه لتدل عليها ، وإنما كان فقهاً ناصعاً واضحاً صافياً تستريح إليه النفوس ، وتطمئن إليه القلوب ، وتقضى به روح هذه الشريعة السمحة !

إن الفقه هو الفهم والفطنة والإدراك لما يريده الله تحقيقاً لمصالح عباده ، وتنظيماً لشئونهم ، وتيسيراً عليهم ، وإسعاداً لهم برغد العيش وطيبات الحياة

هذا هو الفقه ، وهذا هو فقه عمر !

كان أساس الفقه عنده هو المصلحة ، يقدرها قلب امتلأ بالإيمان والإخلاص ، ويزنها عقل راجح منصف لا يميل به الهوى ، ولا يفسده الغرض ؛ ذلك بأنه رأى الكتاب الكريم يعلل الأحكام بالمصالح ، ويربط بينهما وجوداً وعدماً ، وبقاء وانتهاء ، وأدرك ذلك فى جميع تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد ظهرت آثار هذا الفقه من عمر فى صنفين من الحوادث :

أحدهما : الحوادث التى كانت تنزل بالناس وليس فيها وحى يتبع ، فيقول الناس فيها ويقول عمر ، فينزل القرآن على نحو ما قال ، فكأنما ألهم به إلهاماً ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر »

وقد ذكر العلماء الوقائع التى وافق فيها الوحى رأى عمر ، وأوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين ، نذكر منها على سبيل المثال والتطبيق رأيه فى أسرى بدر ، ورأيه فى الحجاب ، ورأيه فى الصلاة على من مات من المنافقين .

فأما رأيه فى أسرى بدر فإنه لما تم النصر للمسلمين فى هذه الغزوة ، ووقع كثيرمن المشركين أسرى فى أيديهم ، عرض النبى صلى الله عليه وسلم أمرهم على أصحابه ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار وعسى الله أن يهديهم للاسلام . وقال عمر : لا والله يا رسول الله ! ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » ثم ضرب إبراهيم وعيسى مثلاً لأبى بكر ، وضرب نوحاً وموسى مثلاً لعمر ، وأخذ برأى أبى بكر فحيكم بالفداء ، فأنزل الله قوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »

قررت الآية رأى عمر ، ونعت عليهم فكرة الفداء مبينة أن سنة الأنبياء الداعين إلى الله ، المنشئين للأمم ، ألا يأخذوا الأسرى طلباً للفداء إلا بعد أن يكونوا قد أثخنوا فى الأرض ، وظهرت لهم القوة والغلبة على أعدائهم ، وتمكنوا من إبادة جرائيم الشر والعدوان التى من شأنها أن تقف دون نجاح الدعوة وتكوين الدولة . ولا ريب أن هذا هو الفقه الذى يرمى إليه عمر بقوله « إن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها » وإنه لخير للمجاهدين قبل أن يتمكنوا من خصومهم أن تجرد نفوسهم من كل غرض مادى ، وأن تملأ قلوبهم بالروح المعنوية التى تحملهم على بذل النفس والتضحية بها فى سبيل الله ابتغاء لما عنده وإيثاراً لعقبى الدار

ولذلك نهى عن الفداء أولاً ، ثم شرع أخيراً بعد أن استقرت دولة المسلمين ، وقويت شوكتهم

وأما رأيه فى الحجاب فأنه يؤخذ من كثير من الروايات أن عمر كان شديد التطلع إلى أن يحتجب نساء النبى صلى الله عليه وسلم تمييزاً لهن عن سائر النساء ، وحفظاً لجلال الرسالة وتوفيراً للهدوء النفسى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإبعاداً لأسباب الأذى عنه ، فكان يقول : « لو كنت أطاع فيكن لما رأتكن عين » ويقول « يا رسول الله : لو اتخذت حجاباً ، فإن نساءك لسن كسائر النساء »

فنزل القرآن فى ذلك تقريراً لما أشار به عمر ، وتأييداً لفقهه الذى بنى عليه « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء » « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

« إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق » « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب »

وأما الصلاة على من مات منافقاً ، فقد روى كثير من المحدثين عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : « لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فلما أراد الصلاة قلت : أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، ورسول الله يبتسم ، حتى إذ أكثرت قال : يا عمر أخر عنى إنى قد خيرت ، ثم صلى عليه ومشى حتى قام على قبره ، قال عمر فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزل « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » ، فقد وجهت الآية منع الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم مثل ما وجه به عمر رأيه : قالت « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وقال عمر « أتصلى على عدو الله القائل كذا وكذا ؟ »

والصنف الثانى من الحوادث التى تجلى فيها فقه عمر ، هو الحوادث التى عرف فيها حكم ، واتخذت صورة عملية بين المسلمين ، وقد كان عمر يغلب فى هذا الجانب أيضاً روح الشريعة وعدالتها وتقديرها للمصالح على الصور التى عرفها الناس من قبل ، وكما حفظ له العلماء موافقاته حفظوا له كثيراً من هذه المسائل التى كان له فيها رأى غير ما كان معروفاً ، واتخذ رأيه صورة عملية أقرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقة منهم بفقهه وعدالته ، وأنه لم يحد قيد شعرة عن الحق

وحسبنا اليوم لضيق المجال أن نشير إلى رأيه فى المؤلفة قلوبهم ، وفى صلاة التراويح ، وفى الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وفى توزيع العطاء ، وفى الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ، وفى متعة الحج ومتعة النكاح ، وفى حد شارب الخمر ، وفى السرقة عام المجاعة ، وفى قتل الجماعة بالواحد ، ونحو ذلك من المسائل التى تدل على أن عمر كان فقيهاً بروحه وطبعه ، وعلى أن فقهه كان مبنياً على إدراك المصالح التى انبنى عليها التشريع ، وأرشد إليها القرآن الكريم ، حيث يقول « والله يعلم المفسد من المصلح » « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » إلى غير ذلك من الآيات

أما بعد : فإذا كان هذا المبدأ قد عمل به عمر ، ونزل به الكتاب ، وأيده الرسول ورضى به الأصحاب ، فجدير بالعلماء أن يجعلوه مبدأهم ، وأن يبنوا عليه فقههم ؛ فذلك أجدى عليهم وأدعى إلى أن يتقبله الناس عنهم ، وأقوى أن يدفعوا به فى صدور أعداء الفقه الإسلامى ، وأجمع لكلمة المسلمين ، وأنفى لهذا التفرق المذهبى الذى جعلنا شيعاً وأحزاباً ونزع هيبتنا من صدور أعدائنا . أسأل الله الكريم أن يهدينا إلى الصواب ، ويبصرنا بالرشاد ، ويجمع على الحق كلمتنا إنه سميع مجيب .

محمد شلتوت

إعلان

يعلن مجلس ادارة ملجأى اليتامى واليتيمات بدمياط عن اعادة إشهار مناقصة توريد الأصناف اللازمة للملجأين من خامات وأدوات مدرسية وأدوية وملابس وخلافها عن عام ١٩٤٤-١٩٤٥ وتطلب الشروط على ورقة دمغة فئة ثلاثين مليما نظير مبلغ ١٥٠ مليم

وقد تحدد ظهر يوم ١٥-٣-١٩٤٤ موعداً لفتح مظاريف العطاءات . وترسل المظاريف برسم حضرة صاحب العزة محافظ دمياط ورئيس مجلس إدارة ملجأى اليتامى واليتيمات مصحوبة بتأمين يوازى ٢ ٪ من قيمة العطاء ١٧٣٧